في اللَّهبِ ، ولا تحترق[١]

أفي الممكن هذا ؟

لعُوبٌ حسنةُ الدَّلِّ[٢] ، مُفاكِهةٌ ، مُداعِبةٌ ، تحيي ليلها راقصةً مغنِّيَةً ؛ حتَّى إذا اعتدل اللَّيلُ ؛ ليَمضي ، وانتبه الفجر ؛ ليُقبل ؛ انكفأت إلى دارها ، فنضَّت وشْيها ، وخرجت من زينتها ، وخلعت رُوحاً ، ولبست روحاً ، وقالت : اللهم إليك ! ولبيك ! اللهم لبيك ! ثمَّ ذهبت فتوضَّأت ، وأفاضت النُّور عليها ، وقامت بين يدي ربِّها تصلِّي . . . !

* * *

هي حسناء فاتنةٌ ، لو سَطع نورُ القمر من شيءٍ في الأرض ؛ لسطع من وجهها . وما تراها في يومٍ إلا ظهرت لك أحسنَ مَمَّا كانت ، حتَّى لتظنَّ : أنَّ الشمس تزيد وجهها في كلِّ نهارٍ شعاعةً ساحرةً ، وأنَّ كلَّ فجرٍ يترك لها في الصُّبح بريقاً ونضرةً من قطرات النَّدى .

وتحسبُ أنَّ لها دماً يَطعم أنوار الكواكب ، ويشرب فيما يشرب نسماتِ اللَّيل .

وإذا كانت في وشيها ؛ وتطاريفها ، وأصباغِها ، وحِلاها ؛ لم تجدها امرأةً ، ولكن جَمرةً في صورة امرأةٍ ، فلها نورٌ ، وبصيصٌ ، ولهبٌ ، وفيها طبيعة الإحراق . إنَّ الَّذي وضع على كلِّ جمالٍ ساحرٍ في الطَّبيعة خاتمَ رهبةٍ ؛ وضع على جمالها خاتمَ قرص الشَّمس .

فإذا رأيتَها بتلك الزِّينة في رقصها ، وتثنِّيها ؛ قلت : هذه روضة مُفتَّنةٌ ؛ اشتهت أن تكون امرأةً ، فكانت ، وهذا الرَّقص هو فنُّ النَّسيم على أعضائها .

وهي متى نفذت إلى البقعة المجدبةِ من نفسك ؛ أنشأت في نفسك الرَّبيعَ ساعةً ، أو بعض ساعةٍ .

---

(١) انظر قصة هذه الراقصة ، وما كان من شأنها في « عمله في الرسالة » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « الدل » : الدَّلال .

وتنسجم أنغامُ الموسيقا في رشاقتها نغمةً إلى حركةٍ ؛ لأنَّ جسمَها الفاتن الجميل هو نفسُه أنغامٌ صامتةٌ تُسمَع ، وتُرى في وقتٍ معاً .

وتنسكبُ روحها الظَّريفة بين الرَّقص ، والموسيقا ؛ لتُخرجَ لك بظرفها صراحة الفنِّ من إيهامين ، كلاهما يعاون الآخر .

وهي في رقصها إنَّما تفسِّر بحركات أعضائها أشواقَ الحياة ، وأفراحَها ، وأحزانَها ، وتزيد في لغة الطَّبيعة لغة جسم المرأة .

وكأنَّ الليلَ والنَّهار في قلبها ، فهي تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً ، وظلمةً .

وهي إلى القِصَر ؛ غير أنَّك إذا تأملتَ جمالها وتمامَها ؛ حسبتَها طالت لساعتها ، وإلى النَّحافة ؛ غير أنَّك تنظر ، فإذا هي رابيةٌ ، كأنَّ بعضها كان مختبئاً في بعضٍ .

ويخيَّل إليك أحياناً في فنٍّ من فنون رقصها : أنَّ جسمها يتثاءب برعشةٍ من الطَّرب ، فإذا جسمُك يهتزُّ بجوابِ هذه الرَّعشة ، لا يملك إلا أن يتثاءب . . .

ويُجنُّ رقصها أحياناً ، ولكن لِتُحقِّقَ بجنون الحركة : أنَّ العقل الموسيقيَّ يصرِّف كلَّ أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيش الفنِّ في تأوُّدها[1] ، ولفتتها ، ونظرِتها ، وابتسامها ، وضحكها ؛ ففي وجهها دائماً علامةُ وقار عابسةٌ ، تقول للنَّاس : افهموني !

* * *

ولمَّا رأيتُها ؛ شهد قلبي لها بأنَّ على وجهها مع نورِ الجمال نورَ الوضوء ، وأنَّها متحرِّرةٌ ممتنعةٌ في حصنٍ من قلبها المؤمن ، يبسط الأمن ، والسَّلامة على ظاهرها ، وأنَّ لها عيناً عذراءَ ، لا تحاول التَّعبير ، لا سؤالاً ، ولا جواباً ، ولا اعتراضاً بينهما ، وأنَّ قوَّة جمالها تستظهرُ بقوَّة نفسها ، فيكون ما في جمالها شيئاً غير ما في النِّساء ، شيئاً عبقرياً بالغَ القوَّة ، يكُفُّ الدَّواعي ، ويحسِم الخواطر ، ويُرغِم الإعجابَ أن يكون ذهولاً ، وحيرةً ، ويُكرِه الحبَّ أن يرجع مهابةً واحتشاماً .

والرِّواية كلُّها في باطنها تظهر على ضوءِ من مصباح قلبها ، وما وجهُها إلا

---

(١) « تأودها » : انحناؤها ، وانعطافها .

الشَّاشة البيضاء لهذه « السِّيما » وهل يكون على الوجه إلا أخيلةُ القلبِ، أو الفكر ؟

وعندي : أنَّ المرأة إذا كان لها رأي دينيٌّ ترجع إليه ، وكان أمرها مجتمِعاً في هذا الرَّأي ، وكانت أخلاقها محشودةً له ، متحفِّلةً به ؛ فتلك هي الياقوتة التي تُرمَى في اللَّهب ، ولا تحترق ، وتظلُّ مع كلِّ تجربةٍ على أوَّل مجاهدتِها ؛ إذ يكون لها في الطَّبيعة تركيبها الياقوتيُّ ما تهزم به طبيعةَ التَّركيب النَّاريِّ .

وليس من امرأةٍ إلا وقد خلق الله لها طبيعةً ياقوتيَّةً ، هي فطرتها الدِّينيَّة ؛ الَّتي فيها ، إن بقيت لها هذه ؛ بقيت معها تلك ، ولكنَّها حين تنخلع من هذه الفطرة ؛ تخذلها الفطرة ، والطَّبيعة معاً ، فيجعل الله عِقابها في عملها ، ويكلها إلى نفسها ، فإذا هي مقبلةٌ على أغلاطها ، ومَساوِئها بطرقٍ عقليَّةٍ ؛ إن كانت عالمةً ، وبطرقٍ مفضوحةٍ ؛ إن كانت جاهلةً ، وما بدٌّ أن تستسرَّ بطباعٍ إمَّا فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة إلى الفساد ، ويرجع ضميرها الخالي محاولاً أن يمتلىء من ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلىء من ضميرها ، وتصبح المرأة بعد ذلك في حكم أسباب حياتها مصرَّفةً بهذه الأسباب ، خاضعةً لما يُصرِّفها ، ويذهب الدِّين ، وينزل في مكانه الشَّيطان ، ويزول الاستقرار ، ويحلُّ في محلِّه الاضطراب ، وتنطفىء الأشعَّة ؛ الَّتي كانت تذيب الغيوم ، وتمنعها أن تتراكم ، فإذا الغيوم مُلتفٌّ بعضها على بعضٍ ، وتُخذَل القوَّة السَّامية ؛ الَّتي كانت تنصر المرأة على ضعفها ، فتنصرها بذلك على أقوى الرِّجال ، فإذا المرأة من الضَّعف إلى تهافتٍ ، تَغلبُها الكلمة الرَّقيقة ، وتغترُّها الحيلة الواهنة ، وتوافق انخداعها كلُّ رغبةٍ مزيَّنةٍ ، ويستذلُّها طمعُها قبل أن يستذلها الطَّامع فيها ؛ ولتكن بعد ذلك مَن هي كائنةٌ أصلاً ، وحسباً ، وتهذيباً ، وعقلاً ، وأدباً ، وعلماً ، وفلسفةً ، فلو أنَّها امرأةٌ من « الإسمنت المسلَّح » لتفتَّتتْ بالطَّبيعة ؛ الَّتي في داخلها ، ما دامت الطَّبيعة متوجِّهةً إلى الهدم ، بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تَهدِم ، وأن تتهدَّم .

لقد رقَّ الدِّين في نسائنا ، ورجالنا ، فهل كانت علامة ذلك إلا أنَّ : كلمة : « حرام ، وحلال » قد تحولَّت عند أكثرهم ، وأكثرهنَّ إلى : « لائقٍ ، وغير لائقٍ » ؛ ثمَّ نزلت عند كثيرٍ من الشُّبَّان ، والفتيات إلى : « معاقبٍ عليه قانوناً ، ومباح قانوناً . . » ثمَّ انحطَّت آخِراً عند السَّواد ، والدَّهماء إلى : « ممكن ، وغير ممكن . . . » ؟

* * *

قالت الياقوتة ـ أعني : الراقصة ـ :

أخذني أبي من عهد الطُّفولة بالصَّلاة ، وأثبتَ في نفسي : أنَّ الصَّلاة لا تصحُّ بالأعضاء ؛ إن لم يكن الفكر نفسه طاهراً يصلِّي لله مع الجسم ، فإن كانت الصَّلاة بالجسم وحدَه ؛ لم يزدد المرء من رُوح الصَّلاة إلا بعداً ، وقرَّ هذا في نفسي ، واعتدته ؛ إذ كنت أتعبَّد على مذهب الإمام الشَّافعيِّ ـ رضي الله عنه ـ فأصحِّح الفكر ، وأستحضر النِّيَّة في قلبي ، وأنحصرُ بكلِّي في هذا الجزء الطَّاهر قبل أن أقول : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكري قادراً على أن يخلع الدُّنيا متى شاء ، ويلبسها ، وأن يخرج منها ، ثمَّ يعود إليها ، ونشأت فيه القوَّة المصمِّمة ؛ الَّتي تجعله قادراً على أن ينصرف بي عمَّا يُفسد رُوح الصَّلاة في نفسي ، وهي سرُّ الدِّين ، وعماده .

يا لها حكمةٌ أنْ فرض الله علينا هذه الصَّلوات بين ساعاتٍ وساعاتٍ ؛ لتبقى الرُّوح أبداً إمَّا متصلةً ، أو مهيَّأةً لتتَّصل ؛ ولن يعجز أضعف النَّاس مع روح الدِّين أن يملكَ نفسَه بضع ساعاتٍ ، متى هو أقرَّ اليقين في نفسه : أنَّه متوجهٌ بعدها إلى ربِّه ، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً ، أو آثماً ، ثمَّ هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ؛ ذكر أنَّ بعدها الفريضة الأخرى ، وأنَّها بضعُ ساعاتٍ كذلك ، فلا يزال من عزيمة النَّفس وطهارتها في عُمره على صيغةٍ واحدةٍ لا يتبدَّل ، ولا يتغيَّر ، كأنَّه بجملته ـ مهما طال ـ عملُ بضع ساعاتٍ .

قالت الياقوتة : ورأيت أبي يصلِّي ، وكذلك رأيت أمِّي ، فلا تكادُ تُلمُّ بي فكرةٌ آثمةٌ إلا انتصبا أمامي ، فأكره أن أستلئم إليهما ، فأكون الفاسدة ، وهما الصَّالحان ، واللئيمة ، وهما الكريمان ؛ فدمي نفسه ـ ببركة الدِّين ـ يحرسُني كما ترى .

قلت : فهذا الرَّقص . . . ؟

قالت : نعم ، إنَّه قُضِيَ عليَّ أن أكون راقصةً ، وأن ألتمس العيش من أسهل ثلاث طُرُقٍ ، وألينها ، وأبعدِها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهِرَها ؛ أريد : الرَّقص ، أو الخدمة في البيت ، أو العمل في السُّوق ، وأنا مُطيقةٌ لحرِّيَّتي في الأولى ، ولكنِّي لن أملكها في الأخيرتين ما دام عليَّ هذا الميسم من الحسن ، وكم

من امرأةٍ متحجِّبةٍ وهي عارية الرُّوح ، وكم من سافرةٍ وروحها متحجِّبةٌ ، إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه ، وليس السُّؤال ما سألتَ ، بل يجب أن يكون وضعه هكذا : هل ما ترى هو في ثيابي فقط ، أو هو في ثيابي ، ونفسي ؟

ها أنت ذا تُغَلْغِلُ نظرتَك في عينيَّ إلى المعاني البعيدة ، فهل ترى عينيْ راقصةٍ؟

قلت : لا والله ! ما أرى عيني راقصةٍ ، ولكنْ عينيْ مُجاهدٍ في سبيل الله . . . ! فاستضحكتْ ، وقالت : بل قل : عيني مجاهدٍ يهزم كلَّ يوم شيطاناً ، أو شيطانين !

إنِّي لأرقُص وأغنِّي ، ولكن أرتدي ما الَّذي يُحرِزُني من العاقبة ، ويحميني من وباء هذا الجمهور المريضِ النَّفس ؟ فاعلم : أنِّي لا أشعر بالجمهور ، ولا برُوح المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة ، والمشيِّعين إليها ، فهيهات بعد ذلك ، هيهات ! ومِن هذا لا أحِسُّ بقلوبهم ، ولا بشهواتهم ؛ وما أنا بينهم إلا كالَّتي تؤدِّي عملاً فنِّياً على ملأ من الأساتذة الممتحِنين ، والنَّظارةُ يحكمون لها ، أو عليها ؛ فهي في فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاؤوا . . .

ولست أنكر أنَّ أكثرهم ، بل جميعَهم ، يخطىء في طريقة تناوله السَّيَّال الكهربائيَّ المنبعثَ من نفسي ، ولكن لا عليَّ ، فهذا السَّيَّالُ نفسه ينبعث مثله من الزَّهر ، ومن القمر ، والكواكب ، ومن كلِّ امرأةٍ جميلةٍ تمشي في الطَّريق ، ومن كلِّ جميلٍ في الطَّبيعة ، وحتَّى من الأمكنة ، والبقاعِ إذا كان لإنسانٍ فيها ذكرياتٌ قديمة ، أو نبَّهت ببعضِ معانيها بعضَ معانيه !

قالت الياقوتة : فأنا كما يُرى أضْطَرِبُ وجوهاً من الاضطراب في جذْب النَّاس ، ودفعهم معاً . وإذا سَلمتِ المرأةُ من أن يغلبها الطَّمع على فكرها ؛ سلِمتْ من أن يغلبها الرَّجل على فضيلتها . وفي النِّساء حواسُّ مغناطيسيَّةٌ ، كاشِفةٌ ، منبِّهةٌ ، خُلقت فيهنَّ كالوقاية الطَّبيعية لتسلمَ بها المرأة من أن تُخطِر عِفَّتها لغرضٍ ، أو تغرِّر بنفسها لإنسانٍ ، فإنَّك لتُكلِّم المرأة وتزيِّن لها ما تزيِّن ، وهي شاعرةٌ بما في نفسك ؛ وكأنَّها ترى ما في قلبك ينشأ ، ويتدرَّجُ تحت عينيها ، وكأنَّه في وعاءٍ من الزُّجاج الرَّقيق الصَّافي ، تحمله على كفِّك ، يَشِفُّ ، ويفضح ، لا في قلبٍ من لحمٍ ، ودمٍ تخفيه بين جنبيك ، فيطوي ، ويكتُم .

وليس يُبطل هداية هذه الحاسَّة في المرأة إلا طمعُها الماديُّ في المال ،

والمتاع، والزِّينة، فإنَّ هذا الطمع هو القوَّة ؛ الَّتي يغلبُ بها الرَّجلُ المرأة ، فبنفسِها غلبها ! وإذا تبذَّل طمعُ امرأةٍ في رجلٍ ، فهي مومسٌ ؛ وإن كانت عذراءَ في خدرها .

ويا عجباً ! إنَّ وجودَ الطَّبيعة في النَّفس غيرُ الشُّعور بها ، فليس يُشعر المرأة بتمام طبيعتها النِّسائية إلا الزِّينة ، والمتاعُ ، وما به المتاع ، والزِّينة ، فكأنَّ الحكمة قد وَقَّتْها ، وعرَّضتْها في وقتٍ معاً ؛ لتكون هي الواقيةَ ، أو المُخْطرة لنفسها ، فبعملها تُجزَى ، ومن عملها ما تضحكُ وتَبْكي .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسي ألا أطمعَ في شيءٍ من أشياء النَّاس ، وسخوتُ عن كلِّ ما في أيديهم . فما يتكرَّمون عليَّ إلا بهلاكي ، وحسبي أن يبقى لعينَيْ قلبي ضوءُهما المبصِر ، وأنا أعتمدُ على شهامة الرَّجل ، فإن لم أجدها علمت : أنِّي بإزاء حيوانٍ إنسانيٍّ ، فأتحذَّرُه حذري من مُصيبةٍ مقبلةٍ ! وإذا جاءني وَقِحٌ خلق الله وجهه الحسن مسبَّةً له ، أو خلقه هو مَسَبَّة لوجهه القبيح ؛ ذكرتُ أنِّي بعد ساعة ، أو ساعاتٍ أقوم إلى الصَّلاة ، فلا يزداد منِّي إلا بعداً وإنْ كانَ بإزائي ، فأغلِظ له ، وأتسخَّط ؛ وأُظهر الغضب وأصفعه صَفعتي .

قلت : وما صفعتك ؟

قالت : إنَّها صفعةٌ لا تضربُ الوجهَ ، ولكنْ تُخجله .

قلت : وما هي ؟

قالت الياقوتة : هي هذه الكلمة : أما تعرف يا سيدي ! أنِّي أُصلِّي ، وأقول : « الله أكبر » ؟ فهل أنت أكبر . . . ؟ أأقيم لك البرهانَ على صَغارِكَ ، وحقارتك : أأنادي الشُّرْطِيَّ . . . !

* * *

تختنق بالرَّقص ، وتنتعش بالصَّلاة ، وفي كلِّ يومٍ تختنق ، وتنتعش .

ولكنِّي لا أزال أقول :

أفي الممكن هذا ؟

أفي المترادف شرعاً : رَقصتْ ، وصلَّتْ . . .

* * *